

إهناج المسنشرقين ومنهجهم في دراسة الشعر الجاهلي ط/د.خنو فاطمة الزهراء جامعة سيدي بلعباس

ملخص:

تتمسك كل أمة بتراثها، و تعتز بكل ما يحمله من عطاءات دينية وروحية وفنية، بل تضيف عليه نوع من القداسة، فهو يشكل بوتقة متقدة تشع على الدوام مثيرة القوة الروحية الدافعة لأبناء هذه الأمة نحو السبق الحضاري و الوجود الرائد في الواقع الحي " فتراث الأمة يمثل حصاد تفاعلها الإنساني على مر التاريخ مع الوجود كله، مع الديانات و العقائد و الفلسفات، مع الآداب و المعارف و الفنون، مع الزمن، مع الطبيعة المادية و الجغرافية و التاريخية مع الأمم الأخرى على اختلاف مواقفها و خصائصها ¹، و كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها و تعداد مناقبها على ضرب من الضروب و شكل من الأشكال، و كانت العرب تعتمد في ذلك على الشعر الموزون و الكلام المقفى، فلقد أغنى هذا الشعر القديم أمة العرب بموروث ثقافي و حضاري لا تلبس الأيام خلق أسماها مهما تطاول به الزمن و مرت عليه العصور برياحها و تقلبات أحداثها.

Résumé:

Adhère à chaque nation de son patrimoine, et est fière de toutes ses offres religieuses et spirituelles et artistiques, mais lui donner une sorte de sainteté, il est une sensation de brûlure pot de fusion rayonnent une force motrice spirituelle excitant pour les gens de cette nation toujours vers le début de la tête de la civilisation et une présence de premier plan dans la réalité vivante « Fterat nation il représente une récolte de l'interaction humaine à travers l'histoire avec toute l'existence, avec les religions et les croyances et philosophies, avec la littérature et de la connaissance et des arts, avec le temps, la nature physique, la géographie et de l'histoire avec d'autres nations sur des positions différentes et caractéristiques », et chaque nation dépend Garder leurs exploits et énumérer leur cou sur un coup est nécessaire Et la forme, et les Arabes étaient dépendants des cheveux et des mots pondérés rimés, nous avons les plus riches de cette ancienne nation de la poésie arabe patrimoine culturel et de la civilisation ne porte jours la création Osmalha peu importe comment prolonger son

كان العرب يولون هذا الشعر في جاهليتهم اهتماما كبيرا " يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذا الشعر : كان الشعر علم قوم لم يكن له علم أصح منه ². فلا توجد أمة عنيّت بأدائها عناية العرب بشعرهم، و هل يشك أحد في أهمية الشعر العربي باعتباره المدخل الرئيسي والبوابة الواسعة لفهم الروح العربية " ذلك الشعر الذي جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم و شاهدا على صوابهم وخطئهم وأصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم و حكمهم كما يقول ابن خلدون ³.

شعر ما فتى البحث العلمي يكف عن تدارسه وسبر أغواره فتعددت أصناف باحثيه و دارسيه و طرائق بحثهم فيه و ما ولّوه من عناية في أصوله وأمسه فكيف لا يكون هذا الشعر و هكذا موروث مدّعي أمام الحركات الثقافية و أمام لهفات النفوس الضمأ لمعرفة أسرار ذلك التراث الخالد، لذا تعددت دراسات الباحثين من الغرب لاسيما المستشرقين لهذا التراث بالدراسة و التنقيب في أصول الشعر العربي والقصيدة العربية و مباحث نشأته و انتظامه بأوزان ثابتة و كيفية أعمال الشاعر خياله و إضفاء مسحته الفنية و براعته و

تجربته الشعرية لينقل لنا شعرا موحدا خلدته الأيام و السنين و حملته إلينا رياح الفكر العربي محفوظا من كل فكر مسموم يحاول النيل من هذا الكلام الذي حفظته صدور الرجال و تناقلته الرواة و علماء اللّغة والشعر و نقاده، هذا الأمر الذي أثار المستشرقين فحاولوا توجيه السهام إليه لنفيه أو الشك في صحته و هناك منهم من له الموقف الايجابي إزاء موروثنا و حضارتنا.

و حاجة المستشرقين إلى فهم هذا الشعر العربي كانت تتطلب ترجمات دقيقة لنصوصه لتظهر جماليته و فنيته، فقد لعبت الترجمة دورا هاما في إدخال الثقافة العربية إلى حضارة الغرب، " فقد استفاد الأوروبيين من المكتبات المنتشرة في الأندلس فاستولوا عليها بعد انتصارهم على المسلمين و قام العلماء والمترجمون بنسخ و ترجمة الكثير من المؤلفات العربية، و استفادوا منها في دراساتهم و اعتمدوا الكثير منها للتدريس في جامعاتهم الأوروبية، و لا تزال مكتبة الأسكوريال في مدريد تحوي على عشرات الآلاف من المخطوطات العربية في مختلف العلوم و الآداب و الفنون، و هكذا بدأ الأوروبيون يتصلون بالتراث العربي عن طريق الترجمة، و استعانوا في هذه الترجمات باليهود الذين كانوا يتقنون العربية و اللاتينية، فالجهود الفردية لم تلبث أن حصلت محلها جهود أوسع و أكثر تنظيما حين بدأت السلطات تنشئ معاهد للترجمة ".⁴

فقد اهتم المستشرقون باللّغة العربية و الشعر الجاهلي بعد إدراكهم لأهميته، فساهموا في نشر هذا التراث، فاهتموا به و كتبوا حوله فقد تمثلت جهودهم في مجملها كلا واحدا فاهتموا بالتحقيق و النشر و حتى التأليف حول هذا الشعر .

المعلقات : اهتم المستشرقون بالمعلقات حيث " قام " نولدكه " بترجمتها و شرحها وقد عادت ترجماته و شروحه على المعلقات الخمس بالنفع العميم على اللّغة و تتجلى مهارته في الشرح أيضا في محاضراته التي جمعت لمقتضيات الدرس الأكاديمي باللاتينية و نشرت عام 1890 م ".⁵

و نشر " فريدريك أنرولد " المعلقات السبع سنة 1850 م ".⁶

أمّا فيما يخص المعلقات مفردة فقد نشر الكثير منها خاصة على أيدي المستشرقين الألمان حيث نشر " روكرت " معلقة عمرو بن كلثوم⁷ و نشر " شلويسنجر " المعلقة نفسها بشرح ابن كيسان في مونيخ عام 1907 م.⁸ و كان " رايسكه " أول من نشر معلقة طرفة بن العبد بشرح ابن النحاس مع ترجمتها إلى اللاتينية عام 1742⁹، و نشر هذه المعلقة أيضا " فولرز الذي نشر معلقة طرفة بن العبد بشرح الزوزني مع ترجمة إلى اللاتينية و ترجمة لحياة الشاعر مع إضافات مختارة مع تعليقات رايسكه 1827م بون وكذلك معلقة الحارث بن حذفة بشرح الزوزني مع قصيدتين لأبي العلاء.¹⁰

معلقة زهير نشرها " روز نيميلار " Rosenmuller باللاتينية و كذلك " ريشر " سنة 1913 م،¹¹ أمّا معلقة امرئ القيس فقد نشرها " أوجست موللر " مع شروح بالألمانية.¹²

-الدّواوين : سعى المستشرقون إلى تعريف أبناء جلدتهم بتراث العرب فترجموا الكثير من الدّواوين الشعرية و نشرها و قدموا دراسات حول هذه الدّواوين، " كديوان امرئ القيس و المتنبي و عنتره و أبي العلاء و الحلاج و ابن الفارض "¹³، فقد نشر " روكرت " ديوان امرئ القيس إلى الألمانية و نشرت هذه الترجمة 1843 "¹⁴ و كتب بلاشير عن المتنبي : المتنبي كشاعر العربي الإسلامي و علّق على ديوانه"¹⁵، وترجم " رينيه باسه "

قصيدة نهج البردة للبصري 1894 م و قصيدة بانث سعاد لكعب بن زهير عام 1915 م و ديوان أوس بن حجر و ديوان عروة بن الورد¹⁶، كما كتب المستشرق " لاجرانج " (ت 1859) بحوثا و مقالات يدافع فيها عن محاسن الشعر العربي و دواوين الشعراء .

و نشر " فلهم ألفرت " و هو من أكبر المتمكنين في اللغة العربية و أكبر حجة في الشعر الجاهلي نشر كتاب العقد الفريد في دواوين الشعراء الجاهليين، و نشر ديوان العجاج ببرلين 1903 م و ترجم ديوان رؤية نظما إلى اللغة الألمانية، و ظهرت الترجمة ببرلين 1904 م.¹⁷

و أصدر كتاب بعنوان " ملاحظات على صحة القصائد العربية الجاهلية ¹⁸، ونشر " تيودور نولدكه " ديوان عروة بن الورد¹⁹، و نشر " توربكه " في ليبزج عام 1867 م ديوان عنتره²⁰، و حقق " باول شفارتز " ديوان عمرو بن أبي ربيعة وقدم حول الشاعر و أسلوبه و وزنه بحثا مفيدا نشره عام 1909 م.²¹

و نشر " رودلف جيير " ديوان الأعشى حيث صدرت الطبقة الكاملة لشعر الأعشى عام 1928 م²²، و نشر " شولتر " في ليبزج عام 1911 ديوان أمية بن الصلت و ديوان حاتم الطائي 1897 م.

و نشر ديوان علقمة الفحل المستشرقين فيتسنفلد في لندن عام 1858 م وألبرت سوسين في ليبزج 1967 م. فقد ظهرت أسماء لامعة للكثير من المستشرقين ممن قاموا بدراسة الأدب العربي والتعرض لتاريخه إضافة إلى هؤلاء ما قدمه " كارل بروكلمان " في كتابه " تاريخ الأدب العربي " الذي يعتبر خير كتاب جامع عن الأدب العربي، فقد بلغ هذا الكتاب شهرة كبيرة، ظهر النصف الأول من الكتاب من (ج 1) : 1897 م و النصف الثاني (ج 1) 1898 م أما الجزء الثاني (ج 2) ظهر عام 1902 ثم أعاد بروكلمان طبعه في مجلدين مع توسعات كثيرة.

فالكتاب مؤلف من خمسة مجلدات: المجلد الأول والثاني هما الأصل والثلاثة الباقية هي عبارة عن ملاحق.²³ يتضمن هذا الكتاب ترجمة للعديد من الشعراء و الكتاب و العلماء والمؤرخين والمحدثين والفلاسفة ويعتبر مرجعا لا غنى عنه للقارئ و الناقد و المحقق على السواء وهذا ما عبر عنه مترجم الكتاب "عبد الحكيم النجار": « كان تعريب كتاب تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان أملا يراود كل قارئ بالعربية حينما يبحث في علوم العرب وآدابهم أو يحاول سبر جهودهم ومتابعة خطواتهم في تأسيس ثقافة العالم الجديد وتنمية حضارته أو يريد حصر ما تشتت وإحصاء ما تفرق من تراث الفكر العربي في مكتبات العالم وخزائن الكتب».²⁴

هذا فضلا عما قام به قسم آخر من المستشرقين بتحقيق كتب التراث العربي والمخطوطات العربية و هي كثيرة جدا تمثل بحق جهد هؤلاء المستشرقين و عنايتهم الفائقة بالتراث العربي.

فالشعر الجاهلي من أكثر قضايا الأدب العربي التي نالتها سهام المغرضين من المستشرقين، حيث شكك العديد منهم في أصالة الأدب العربي و صحته، " فمن حق كل أمة أن يعرف أبنائها ما يقوله الآخرون عنها في عقيدتها و أخلاقها و ثقافتها وحضارتها، كما أنّ من حق أبناءها المتقفين أن يبتناولوا هذه الأقوال بالتحليل و النقد لأن السكوت عنها تسليمٌ ضمني بها " .²⁵

منهج المستشرقين في دراسة الشعر الجاهلي

إذا كانت جهود المستشرقين الكبيرة في تحقيق التراث و نشره قد أفادت فائدة كبيرة نستطيع الاطمئنان إليها فإن جهودهم في التأليف ليست كذلك، إذ هم يصدرون فيما ألفوا عن الحياة العربية والإسلامية و تاريخ المسلمين وعقائدهم عن وجهات نظر معينة دينية و عنصرية، فعلى هنا في مجال التأليف أن نقف موقف المُستفيد الواعي الحذر و لا ننسى جهودهم التصنيفية في مجالات المعاجم وفهارس المخطوطات و المعجم المفهرس و دائرة المعارف الإسلامية.

فالمنهج السلبي الذي اعتمدوه تجاه تراثنا بشكل عام و تجاه الشعر الجاهلي بشكل خاص حيث اعتمدوا منهج الشك في تعاملهم مع هذا الشعر، فالشك هو السبيل الوحيد للوصول إلى اليقين حسب هؤلاء، إذ يظهر ذلك من خلال نظراتنا للحجج التي اعتمدوها لنفي صحة الشعر الجاهلي، فهم ينفون حقائق ثابتة رواها ثقاة العلماء، فقط لمجرد أنهم يشكون في صحتها دون تقديم أي دليل علمي يثبت ما ذهبوا إليه، مع اعترافهم بقصورهم على إدراك كنه الشعر الجاهلي، و ذلك لعدم تمكنهم من خاصية اللغة العربية، حيث يعترف المستشرق " نولدكه " بهذا العجز اللغوي إذ يقول : « صحيح أننا لا نستطيع أن نوغل في الحكم الدقيق على القصائد إلى الحد الذي يستطيعه النقاد العرب بل سيكون حالنا أقل مما يستطيعه فرنسي أو انجليزي من الحكم الصادق على الشعر الألماني مثلاً، ذلك لأن ذلك يحتاج إلى معرفة بدقائق اللغة العربية و الاستعمال الشعري لا يستطيع اكتسابها أي أجنبي، و ما أبعدنا عن إدراك أدق الفروق في الاستعمال اللغوي العربي القديم ». ²⁶

و لم يكن هذا الاعتراف من " نولدكه " سوى بداية الاعترافات أخرى أدلى بها مستشرقون آخرون منهم " فلهم ألفرت " الذي اعترف بأن إمكانياتهم في التمكن من كل اللهجات العربية أمر جد صعب و في هذا يقول : « إن وسائلنا هي غالباً غير كافية تفصيلاً، إنها قاصرة كثيراً إذ ليس ينقصنا فقط الملاحظات العميقة الدقيقة عن الاستعمال اللغوي لدى كل شاعر و في كل عصر بل و قبل كل شيء ينقصنا الوسائل التي تتعلق بالفروق بين اللهجات، خصوصاً فيما يتعلق بالألفاظ ». ²⁷

فمن الأسباب التي أذكت روح الشك في الشعر الجاهلي هو جهل هؤلاء المستشرقين لأبجديات هذه اللغة بل و أكثر من ذلك عدم تمكنهم من اللهجات التي كانت منتشرة هناك عددها بعدد القبائل، مما جعل المستشرقين يقفون موقف الحيرة وفي هذا السياق يقول " الوارد " : « و هذا الإحساس اللغوي يعوزنا حقاً، و لا اعتقد أننا نستطيع مثلاً أن تميز بين لغة جرير و لغة الفرزدق ... » ²⁸

هذه الأسباب جعلت المستشرقين على اختلاف مدارسهم ينحازون إلى منهج الشك كوسيلة مضادة للهجوم و التشكيك في صحة النصوص فالمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها، و نتيجة وصل إليها مقدماً.

تبين لنا المصادر أن أول من طرق قضية الشك و الانتحال في الشعر الجاهلي في العصر الحديث هو المستشرق الألماني " تيودور نولدكه " حيث استند في دراسته إلى نصوص عربية، أهمها كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، ثم تبعه بعد ذلك المستشرق " ألوارد " و قد سعى كلاهما و اجتهدا في إيجاد حجج لما ذهبوا إليه من أن هذا الشعر لم يصلنا منه إلا القليل الذي يمكن أن نعدّه شعراً جاهلياً، فشكوا فيما يتعلق بالرواية و الرواة و ما يتعلق بالتدوين و ما يتعلق بالشعر نفسه.

1- الرواية : إنّ أول مسألة تناولها المستشرقون في حديثهم عن صحة الشعر الجاهلي هي مسألة الرواية، أي رواية هذا الشعر باعتبارها الطريق الوحيد حسب رأيهم التي وصل إلينا من خلالها، فقد حظيت باهتمام خاص منهم، حيث تتبعوا بعض السقطات و الزلات التي شابتها ،و من ثم اتخذوها مطعنا للطعن في هذه الرواية، وتمحورت انتقاداتهم لها حول نقطتين أساسيتين هما : عدم وجود الكتابة و انتقال الشعر الجاهلي مشافهة فقط، و الاختلاف الظاهر في نسبة القصائد إلى الشعراء، حيث نجد عدد من القصائد تنسب إلى غير قائلها أو تنسب إلى أكثر من شاعر ونتعرض لذلك من خلال آراء المستشرقين في الفصل الثاني.

2- الرواة : تحدث المستشرقون عن دور الرواة في انتحال الشعر و كانت انطلاقتهم مرتكزة على ما أثبتته القدامى : « لم يكن أمر الوضع و النحل في الشعر الجاهلي ليخفى على الرواة العلماء، فقد تنبه له كثيرون منهم، بل قلما نجد رواية من القرن الثاني و القرن الثالث لا تذكر لنا الأخبار المروية عنه أنه نص نسا صريحا على أن بيتا أو أبياتا بعينها موضوعة منحولة ».²⁹

فالمسألة بالنسبة للمستشرقين لا تتعلق بمحاولة إثبات هذا الأمر لأنه مثبت مسبقا و إنّما الغرض من هذه الدراسة هو تباين الأسباب التي أدت بهؤلاء الرواة إلى وضع ونحل الشعر الجاهلي، فنجد المستشرق " نولدكه " يحصرها في نقاط معينة حينما تحدث عن تزيف الشعر و انتحاله و بيّن أسبابه :

« بأن بعضا من الشعراء المتأخرين وضعوا قصائد على لسان الشعراء الجاهلين لينالوا القبول والحظوة، و انتحلت قصائد كاملة أو أبياتا مفردة، إما من أجل الوعظ أو المحاضرة أو الفخر بقبيلة أو ذمها، أضافوها إلى قصائد صحيحة و القصد من ذلك تزيين الأخبار التاريخية بقطع شعرية ... ».³⁰

يتبين من القول بأن الأسباب التي دعت الرواة إلى الانتحال في الشعر حسب رأي " نولدكه " تحقيق منفعة شخصية كالحظوة و القبول و تزيين الأخبار التاريخية. ومن بين الرواة الذين تكلموا عنهم المستشرقون : حماد الراوية و خلف الأحمر و رواة آخرون.

و لم يكن الرواة وحدهم من تحمل عبء الرواية و وزر الانتحال بل شمل ذلك الشعراء أيضا، ففي حديث المستشرقين " نولدكه " و " ألوارد " عن دور الشعراء في إفساد الرواية، « بروايتهم ما لا يصح من أشعار، حيث قام المتأخرون منهم بوضع قصائدهم على لسان شعراء جاهليين »³¹

و قد ذكر " نولدكه " أربعة أسباب تدفعهم لذلك و هي : السعي وراء تحقيق القبول و الحظوة و الوعظ و المحاضرة و الفخر بالقبيلة أو ذمها فهذه الأسباب الأربعة هي التي دفعت بهؤلاء الشعراء المتأخرين إلى اختراع أبيات وقصائد و نسبتها إلى شعراء جاهليين.

الهوامش:

¹ جمال سلطان، الغارة على التراث الإسلامي، ط 1، الدار السلفية لنشر العلم، القاهرة، ابريل، رمضان 1410 هـ / 1990 م، ص 07

² محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، د ط، دار المدني، القاهرة، د س، ص 24

³ مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط 1، دار النهضة، القاهرة، مصر، 1977 م، ص 03

⁴ فاطمة هدى نجاء، نور الإسلام و أباظيل الاستشراق، ص 21.

⁵ ينظر : محمد صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان تراجمهم و ما أسهموا به في الدراسات العربية، ص 109.

⁶ يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص 174.

⁷ محمد صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان تراجمهم، ص 09.

- 8 عفيف عبد الرحمن، مكتبة العصر الجاهلي و أدبه، ط 1، دار الأندلس للطباعة و النشر، بيروت، 1404 هـ / 1984 م، ص 110.
- 9 محمد صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان تراجمهم، ص 08.
- 10 عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط 3، دار العلم للملايين بيروت، يوليو 1993 م، ص 419.
- 11 عفيف عبد الرحمن، مكتبة العصر الجاهلي و أدبه، ص 110.
- 12 المرجع نفسه ص 109.
- 13 نجيب العقيلي، المستشرقون، ج 1، ص 187-189.
- 14 عفيف عبد الرحمن، مكتبة العصر الجاهلي و أدبه، ص 112.
- 15 حوليات معهد الدراسات الإسلامية، عدد 4، سنة 1934، مجلة الدراسات الإسلامية.
- 16 نجيب العقيلي، المستشرقون، ج 1، ص 225.
- 17 عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 47.
- 18 عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 47.
- 19 يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص 226.
- 20 عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 160.
- 21 يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص 328.
- 22 المرجع نفسه، ص 270.
- 23 ينظر : شوقي أبو خليل، في الميزان كار بروكلمان، ط 1، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، دمشق، سوريا 1978 م / 1404 هـ، ص 17.
- 24 كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر : عبد الحكيم النجار، ج 1، دار المعارف القاهرة.
- 25 مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، ج 1، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس 1985 م، ص 21
- 26 تيودور نولدكه، من تاريخ و نقد الشعر العربي القديم، ضمن عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، دار العلم للملايين، ط 1، تشرين الثاني نوفمبر 1979 م، ص 20.
- 27 فلهم ألفرت، ملاحظات حول صحة القصائد القديمة، ضمن عبد الرحمن بدوي، دراسة المستشرقين، ص 73.
- 28 المرجع نفسه، ص 74.
- 29 ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية، دار المعارف مصر 1979 م، ص 326.
- 30 محمد خليفة حسن احمد، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية عين الدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية. ط 1، ص 18.
- 31 تيودور نولدكه، من تاريخ و نقد الشعر العربي القديم، ص 27.